الجامعة المستنصرية – كلية الآداب

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية

د. عباس رحيم عزيز

مادة الأدب الجاهلي

المحاضرة التاسعة عشرة

الظواهر الفنية في شعر الصعاليك

شعر مقطوعات:

حين ننظر في شعر الصعاليك الذي بين أيدينا من الزاوية التي تظهر على بنائه الخارجي، فأول ما يلفت نظرنا فيه انه شعر مقطوعات؛ ولسنا نعني بهذا انعدام القصيدة فيه، وإنما نعني ذيوع المقطوعة أكثر من ذيوع القصيدة.

وإذا استثنينا تائية الشنفرى المفضلية ذات الأبيات الأربعة والثلاثين في بعض المصادر، والخمسة والثلاثين في بعض المصادر الأخرى، ولامية عمرو بن ذي الكلب الهذلي ذات الثلاثين بيتا، وراثية عروة بن الورد المشهورة وفائية صخرة الغي الهذلي، وكل منهما في سبعة وعشرين بيتا، ثم تلك الأبيات المفرقة لتأبط شرا في رثاء الشنفرى التي جمعها ناشر ديوان الشنفرى وتألفت منها قصيدة في سبعة وعشرين بيتا، وقافية تأبط شرا المفضلية ذات الأبيات الستة والعشرين، فأننا نجد أنفسنا أمام مجموعة كبيرة من المقطوعات التي يتراوح عدد أبيات الواحدة منها بين البيتين والسبعة، وأما مجموعة أخرى من القصائد القصيرة التي توشك أن تكون مقطوعات لا تتجاوز أطوالها، وهي فائية للشنفرى، عشرين بيتا في بعض المصادر، وتسعة عشر بيتا في بعض المصادر الأخرى، وهذا إلى جانب مجموعة كبيرة من الأبيات المفردة التي يرجح جدا أنها أبيات من قصائد أو مقطوعات لم تصل الينا.

الوحدة الموضوعية:

ظاهرة "الوحدة الموضوعية في شعر الصعاليك"، فالناظر في شعر الصعاليك تلفت نظره تلك الوحدة الموضوعية في مقطوعاته وأكثر قصائده، بحيث يستطيع أن يضع لكل مقطوعة عنوانا خاصا بها، دالا على موضوعها، وهي ظاهرة لم تعرفها قصائد الشعر الجاهلي القبلي في مجموعه، تلك القصائد التي تبدأ عادة بمقدمة طليله، ثم تظل تنتقل من موضوع إلى موضوع حتى تصل إلى نهايتها، حتى لتصبح براعة الانتقال من المقاييس الفنية المعترف بها عند نقاد الشعر العربي القدماء.

ونستطيع أن نمضي مع مجموعة من شعر الصعاليك فلا نكاد نخطئ الوحدة الموضوعية في كل مقطوعاتها واكثر قصائدها، سواء ما كان منها في وصف المغامرات أو الحديث عن سرعة العدو أو الفرار أو تقرير فكرة اجتماعية أو اقتصادية أو غير ذلك من موضوعات شعر الصعاليك التي عرضنا لها في الفصل السابق، ولا نكاد نجد صعوبة في وضع العناوين المختلفة لها، المعبرة عنها، الدالة على موضوعاتها، فمثلا بائية الشنفرى (غارة على العوص) ورائية تأبط شرا (احتيال)، وفائية السليك (والعاشية المذعورة) وبائية حاجز (نجاة)، ورائيته (فرار)، ورائية أبي الطمحان (حنين)، وكافية تأبط شرا (الصديق الصعلوك)، ورائية الشنفرى التي انشدها قبيل مقتله (نهاية الصعلوك)، أو (وصية الصعلوك)، أو (وليمة الضبع).

التخلص من المقدمات الطلية:

هي ظاهرة (التخلص من المقدمات الظليلة)، وهذا طبيعي ما دام الشعراء الصعاليك يحرصون على الوحدة الموضوعية في شعرهم؛ إذ أن المقدمات الطلية تخل بطبيعة الحال بهذه الوحدة الموضوعية.

وفيما عدا تلك المجموعة التقليدية التي اشرنا اليها لا نعثر فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك على مقطوعة أو قصيدة تبدا بمقدمة غزلية، وإنما اتخذ الشعراء الصعاليك لهم مذهبا آخر استعاضوا به عن هذه المقدمات، وهي مذهب جعلوا محوره (حواء الخالدة) أيضا، ولكنها ليست المرأة المحبوبة التي عرفناها عند الشعراء القبليين، تلك التي يتدله الشاعر في حبها ويبكي أيامه معها، ويقف على أطلال ديارها، ويدعو أصحابه إلى الوقوف معه، ولكنها المرأة المحبة الحريصة على فارسها، التي تدعوه دائما إلى المحافظة على حياته، إن لم يكن من اجل نفسه فمن أجلها هي:

عدم الحرص على التصريع:

عدم الحرص على التصريع في مطالع نماذجه الفنية، وقد كان يخيل إلي في أول الأمر أن هذه الظاهرة قد تكون خاصة بمجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة دون سائر شعر الصعاليك، أو بالمقطوعات منه بالذات، إلا أن هذه الظاهرة توشك أن تكون مطردة في كل شعر الصعاليك سواء ما كان منه داخل دائرة الصعلكة وما كان خارجها، وسواء ما كان مقطوعات أو قصائد، وسواء ما كان خاضعا للوحدة الموضوعية أو خارجا عليها، لوجود مجموعة من نماذجه الفنية يظهر التصريع في مطالعها، وهي مجموعة – وان تكن قليلة – تحول دون إطلاق الحكم على كل شعر الصعاليك. ولكن الشيء الذي نحرص على تسجيله وهو أن هذه الظاهرة لا تختص بمجموعة دون مجموعة لالتمسنا تعليلها في خصائص المجموعة التي تختص بها.

التحلل من الشخصية القبلية:

ظاهرة أساسية في "الشعر داخل دائرة الصعلكة" وهي ظاهرة "التحلل من الشخصية القبلية" وهي ظاهرة ليست غريبة على شعر الصعاليك لأنها تتفق وما سجلناه من قبل في دراستنا الاجتماعية لظاهرة الصعلكة من فقد التوافق الاجتماعي بين الصعاليك وقبائلهم مما ترتب عليه فقد الإحساس بالعصبية القبلية في نفوسهم ومن الطبيعي ألا تظهر شخصية القبيلة عند شاعر فقد إحساسه بالعصبية القبلية، وما دامت الصلة بين الشعراء الصعاليك وبين قبائلهم قد انقطعت اجتماعيا فمن الطبيعي أن تنقطع فنيا، ونعني بانقطاعها فنيا تحلل الشاعر الصعلوك من ذلك "العقد الفني" الذي نراه بين الشاعر القبلي وقبيلته، فلا يكون الشاعر الصعلوك "لسان عشيرته" لان ما بينه وبين عشيرته قد انقطع .

القصصية:

واذا قررنا أن شعر الصعاليك صورة صادقة كل الصدق من حياة أصحابه، يسجلون فيه كل ما يدور فيها، فإننا نصل إلى تقرير ظاهرة مترتبة على هذه الفكرة وهي ظاهرة القصصية في شعر الصعاليك" فشعر الصعاليك في مجموعة شعر قصصي يسجل فيه الشاعر الصعلوك كل ما يدور في حياته الحافلة بالحوادث المثيرة التي تصلح مادة طيبة للفن القصصي، فحوادث مغامراتهم الجريئة التي كانوا يقومون بها فرادى وجماعات وما كان يدور فيها من صراع دام مرير، وأخبار فرارهم وعدوهم وتشردهم في أرجاء الصحراء وبين وحشها وأشباحها وتربصهم فوق المراقب في انتظار ضحاياهم، كل هذا وغيره من مظاهر حياتهم مادة صالحة للفن القصصي. وقد استغل الشعراء الصعاليك هذه المادة في شعرهم استغلالا قصصيا رائعا جمع في صورة بسيطة عناصر الفن القصصي الأساسية من الإثارة والتشويق وتسلسل الأحداث حتى تصل إلى غايتها الطبيعية المحتومة.

الواقعية:

والظاهرة السابعة التي نلاحظها على شعر الصعاليك هي "الواقعية"، وأول مظاهر هذه الواقعية اتخاذهم الحياة بما فيها من خير وشر مادة لموضوعاتهم، وبعدهم عن الإمعان في الخيال إمعانا ينقلهم من عالم الوقع إلى عالم الأوهام بسحبه العالية وأبراجه العاجية.

ونظرة إلى موضوعات شعرهم التي عرضنا لها في الفصل السابق ترينا هذا المظهر واضحا جليا، فقد صور الشعراء الصعاليك في فنهم البيئة البدوية التي يعيشون فيها بكل مظاهرها: الصحراء القاسية بشعابها وجبالها وأغوارها، وصخورها ومياهها، وحرها وبردها، وليالها المظلمة الرهيبة، وحيوانها الشارد في إفاقها، ووحشها الرابض في أرجائها، وحشراتها المتوارية في جحورها والسارية فوق رمالها، وصوروا مظاهر الطبيعة المختلفة كما شاهدوها: طلوع الفجر وغروب الشمس والندى المتساقط في أول الليل وفي أخره والبرق والرعد والسحاب والمطر وصوروا الحياة الواقعية التي يحيونها بكل ما فيها من واقع خير وواقع شر: الكرم والمروءة والعطف على الفقراء والمرضى والضعفاء والسلب والنهب وسفك الدماء وبكل ما فيها من محاسن وعيوب: الشجاعة والبطولة والقوة والمغامرة والهرب والفرار والفقر والجوع والهزال والهوان وصوروا الشخصيات الإنسانية التي يتصلون بها كما يرونها في الواقع المحسوس.

السرعة الفنية:

وإذ كانت حياة الشعراء الصعاليك قلقة مضطربة لا تكاد تعرف للاستقرار او الطمأنينة طعما فهم دائما مشغولون بكفاحهم من اجل العيش، ذلك الكفاح الدامي المرير الذي فرغوا له فراغا تاما، والذي وهبوا له حياتهم وجعلوه مذهبا لهم يعيشون له ويموتون في سبيله، وإذ كان شعر الصعاليك صورة صادقة لحياتهم، كانت النتيجة الفنية لهذا أن اتسم شعرهم بالسرعة الفنية، فالعمل الفني عند الشعراء الصعاليك أشبه الأشياء بشوط من أشواط عدوهم، يندفعون فيه ولا يتوقفون حتى يصلوا إلى غايتهم. وليس من البعيد أن تكون هذه السرعة الفنية التي وسمت شعرهم صدى نفسيا لتلك السرعة التي اعتمدت عليها حياتهم، منبعثا من أعماق "اللاشعور"، ولست أدري فقد يؤيد هذا ما نلاحظه من أن الصنعة الفنية في شعر عروة أبطأ واشد أناة وأحكاما منها في شعر صعاليك السراة، ومن المعروف أن عروة لم يكن من العدائين وإنما الصعاليك العداؤون –كما رأينا من قبل – هم أولئك الذين كانوا ينزلون منطقة السراة بين مكة واليمن.